الباب السابع

ديكنز وعيد الميلاد

أخذ تشارلس ديكنز على عاتقه أن يدافع عن قضية عيد الميلاد ، ذلك العيد الذى كانت تحتفل به أوربا فى القرون الغابرة ، ولا يزال يعتبره أفرادها فرصة نادرة للتمتع بالمأكل والمشرب . كما كانوا يقيمون عند حلوله الصلوات ، ولكن مثل هذا الاحتفال اليوم يظهر لنا وكأن القداسة تنقصه ! عيد الميلاد هو أحد الأعياد الأوربية القديمة التى كانت تجمع بين مظاهر البهجة بحلول يومه و بين مظاهر الدين والورع التى يتجمل بها الناس . ولكنه كان فى انجلترا شيئاً آخر . إذ أصبح لدى الأنجليز ذا طابع خاص من وجهة قداسته الدينية ؟ وكذلك فى طريقة الإحتفال به . وديكنز فى تصويره لعيد الميلاد يعطينا صورة يتجلى فيها الاختلاف واضحا بينا فنرى الناس فى بيوتهم يحتفلون بالعيد حول المدفأة ، يرتلون ترانيم العيد ويمرحون ، فى حين أن الجو الخارجى شديد البرودة والأمطار والثلوج تكاد تحطم الأرض .

« انشودة عيد الميلاد »

كان ديكنز أثناء إقامته فى إيطاليا يكتب قصص عيد الميلاد ويحلم وسط مدينة تسكانيا البيضاء بعيد ميلاد تسقط فيه أمطار الرحمة على الناس كما أنه فى أول كتاب له تحت عنوان « انشودة العيد » اختار موضوعا تجرى

حوادثه وسط ضباب لندن الكثيف . إذ كان من خصائص ديكنز أن يهتم بالجو الذى تجرى فيه حوادث قصته . إن الروح الذى يسود قصته عيد الميلاد يبدو أهم من شخصيات القصة أى أهم من سكروج ذاته أو من الأشباح التى تلعب دوراً له أهميته والتى تخيف بطل القصة . ويضفى ديكنز على هـــذا النوع من الكتابة فيضا من روحه الشفافة ويملأها بأساليب البهجة وفى ذلك يختلف ديكنز عن باقى كتاباته التى أحيانا ما يمتؤها الحزن أو الغموض إن قصته هذه تشبه الحلم فى الطريقة التى تقع بها الحوادث فيتراءى للقارىء أن سكروج يحلم فيرى الحوادث التى يسردها لنا المؤلف فى قصته ، فأحيانا يبدأ الحلم بنهاية العالم وينتهى بحفلة شاى

تتغير الحوادث فى هذه القصة بدرجة كبيرة ولكن القصة نفسها لا تتبدل. هذا الكتاب عبارة عن حلم أو بعبارة أخرى دعوة للشعب أن يتهلل بالعيد وأن يرحب بقدومه، وان يشفق الإنسان على أخيه المحتاج والفقير، وأن يتساوى الجميع فى المحبة والأخوة . كانت نظرية ديكنز العامة فى الحياة أن الاصلاح هو نتيجه المحبـــة البشريه وروح المساعدة . كان المؤلف يعتقد اعتقادا راسخاً أنه لو أحب الانسان أخاه لما وجد الفقر والجهل طريقا إلى المجتمع، ولذلك بدلا من أن ينادى باصلاح العوامل الخارجية فانه نادى باصلاح القلوب والعواطف. وكانت الفرصة سانحة فى أيام الأعياد أن يكون الانسان مرحا يحب عمل الخير . فى ذلك الحلم الذى يحدثنا عنه فى «انشودة عيد الميلاد» يدعو الناس لفعل الخير ومع أن الحلم نفسه قد يكون مزعجا إلا أنه يدخل علينا المرح أحيانا ويثير اهتمامنا كما أن الحوادث تتغير بطريقة تدعو للحيرة وتعددها فيه يشبه كتابا به صور عديدة يرى الإنسان واحدة بعد الاخرى، ولكن برغم تعدد المناظر فان روح القصة لا يتبدل .

إن العيد ورسالته هما أهم شيء فى الكتاب .

تبدأ القصة فى يوم من أيام الشتاء فنرى رجلا بخيلا وقد تبدو بداية كهذه مزعجة أو مقبضة، ولكنه يتدارك ذلك فيملأ الجو حولنا بشراً وفرحاً . فلا تلبث الأبواب أن تنفتح وتنطلق منها الأصوات مرنمة مسبحة. ويشبه ديكنز الثلوج التى كانت تتساقط بسخاء الناس الكرماء . كما أن الامطار كانت تذكره بالجمة التى لا تغيض. إن سكروج بالرغم من بخله كان ذا عواطف بشرية سامية . كما أن بخله كان مدعاة لفرحه وسروره . فهو رجل أعزب عجوز ، ولكن بالطريقة التى يظهره لنا فيها المؤلف ، يبدو كأنه ابن عشرين ربيعا . عجوز يتصابى ! .. إن جمال القصة ليس فى موضوعها الآلى أو فى البخيل سواء أكان ذلك محتملا أو مستحيلا بل فى الفرح الذى يشع من وجه سكروج نفسه ومن كل شيء حوله حتى إن المدفأة لتمثل قلب ديكنز المتأجج العاطفة

سواء أثرت رؤيا عيد الميلاد فينا أو لم تؤثر ، وسواء هذه الرؤيا قد اشتركت فيها أشباح الماضى والحاضر والمستقبل ، فانها الرؤيا التى قام بها ملائكة السماء

إن القصة ترنيم من البداية للنهاية فهى تشبه الرجل الذى يغنى فى الطريق إلى المنزل وحتى إذا لم يعرف الغناء فانه يصرخ من شدة الفرح . !

يدور موضوع القصة حول سكروج الرجل الشحيح الذى يرى فى ليلة العيد شبح « مارلى » زميله فى العمل . كما أنه يرى شبح « العيد الماضى » « والعيد الحاضر » « والعيد المستقبل » فيقوم شبح « عيد المستقبل » بأن يظهر له الطريقة التى يموت بها وتأثيرها على معارفه وأن هذه الميتة وطريقتها لا تتبدل إلا اذا غير من مناهج حياته فتؤثر فيه هذه الرؤيا ويصبح رجلا

آخر يشعر بخطأه فيحاول أن يكفر عن أخطاء الماضى .

حينما كان ديكنز منهمكا فى كتابة أعداد « مارتن شزلويت » رأى أن يكتب أيضا فى نفس الوقت قصة عيد الميلاد التى جعلته يسكب دموع الفرح والحزن وذلك لأنه كان ينظر لتلك الشخصيات التى كان يخلقها وكأنها شخصيات حقيقة ، فكان يشاركهم عواطفهم فى الحوادث التى تقع فى مجرى القصة وكان لكثرة تفكيره فى موضوع قصته يسير فى طرقات وشوارع لندن ليلا فى الظلام الحالك لمسافات تتراوح بين خمسة عشر وعشرين ميلا فى حين أن جميع الأفراد العقلاء كانوا نياماً فى بيوتهم . وفى مدة شهر من صدورها كانت تصل ديكنز رسائل الإعجاب من جميع جهات انجلترا يخبره فيها راسلوها عن نوع بيوتهم وكيف أنهم كانوا يقرأون قصته بفرح وسيحتفظون بها على رف خاص ويقرأونها كل عام فى عيد الميلاد .

كان ذلك فى عام ١٨٤٤ . والى الآن تقرأ هذه القصة كل عام فى ليلة العيد فى جميع أنحاء انجلترا بل وفى كثير من البلدان الأوربية الأخرى . ولكن تكاليف النشر لم تترك له كسبا يذكر . لذلك فضل السفر الى إيطاليا لكى يقلل من كثرة النفقات . . .

بعد صدور «انشودة العيد» كتب لورد جفرى إلى تشارلس ديكنز يقول . « عليك أن تبتهج لأنه يجب أن تتأكد بأنك فعلت خيرا عظيما إذ أخرجت هذه القصة الصغيرة . إنك خلقت شعورا طيبا وشجعت أعمالا خيرية كثيرة وكانت النتائج أعظم من أى عظة منذ عيد « ميلاد عام ١٨٤٣ » كما أن « ثاكرى » أحد الكتاب المعاصرين ومؤلف كتاب « قصص عيد الميلاد » امتدح الكتاب قائلا إنه يعتبره « عملا قويا ذا قيمة عظيمة » لم يعش فى ذلك الوقت إنسان لم يهتم بهذا الكتاب الذى كان يؤدى رسالة

العيد . إن رسالة هذه القصة كانت تعظ الرجل المحب لذاته وتدعوه للتخلص من هذه الرذيلة وكانت تقول لرجل الحق بأن يكون كريما وللرجل الطيب القلب بأن يكثر من عمل الخير ويوسع من نطاق أعماله الصالحة . إن صوت هذا الكتاب كان داويا وكان يحمل فى طياته الثقة والأمل .. يدوى صوته من طرف الجزيرة إلى الطرف الآخر حاملا لواء النذير للجميع قائلا لهم « إن كان هذا الاحتفال بالعيد مقصرا فى الواجبات الأساسية فانه لا فائدة من الاحتفال به كمظهر من مظاهر القومية! يجب على مباهج العيد أن تشرق على المنازل التى لاتوجد فيها مدفأة والتى يرفرف عليها ملائكة الحزن . . كما يجب أن يكون العيد رمزا للطيبة وعمل الخير والاحسان والرأفة والتسامح » لم يعش إنسان غير ديكنز استطاع أن يعظ النـاس بالطريقة الفريدة التى استخدمها فى كتابته . لقد علم النـاس ضرورة إدخال السرور على قلوب الآخرين فى الوقت الذى يسود فيه المرح جميع البشر . . .

« الارهاص »

حين فكر ديكنز فى كتابة قصة العيد الثانية قرر أن يكون هذا الكتاب دفاعا عن حقوق الفقراء . فلم يشأ أن يجعله مشابها لأنشودة العيد ولكن نفس نوع العظة التى وجدت فى قصته الأولى كانت تدور فى فكره . فقد حاول إصلاح المجتمع كما نجح فى إصلاح سكروج بأن اثبت لجمهور القراء أن السعادة للمجتمع تتوقف على نفس العوامل التى تجلب سعادة الفرد وتلك العوامل هى الرحمة والاحسان والحق . لم يبذل ديكنز أى اهتمام فى دراسة السياسة الدولية لأنها كانت لديه سهلة الفهم بالبديهة إذ كان فهمه للمجتمع صحيحاً . وأعتقد بأنه من الخطأ أن يثير طبقة ضد طبقة أخرى ولكنه فى

الوقت نفسه كان إعتقاده السائد هو أن يساعد الطبقات على فهم بعضها البعض ولذلك كان وهو فى « جنوة » يتخذ « حامل التذاكر » فى لندن بطلا لقصته وكان على هذا البطل ألا يفقد الثقة فى الاثرياء أو يكون قاسيا فى تفكيره نحوهم رغم أن قد أنقلب فهمه إلى تفكير متطرف بأن فقد ثقته فى الفقراء أمثاله.

ذهب ديكنز الى إيطاليا وروح عيد الميلاد تملأ قلبه وهناك فى عام ١٨٤٤ بين أشجار الزيتون والبرتقال كتب ثانى قصص عيد الميلاد وأطلق عليها عنوان «الأجراس» وهى تختلف عن سابقتها اختلافا بينا، ففيها تكثر الأمطار وان كانت تنزع كقصته الأولى إلى دعوة الناس الى الاحسان والمرح، ولكنها دعوة شديدة محاربة فاذا اعتبرنا انشودة عيد الميلاد مناسبة للموسم فان الثانية تعتبر عيد الميلاد الحربية. فيها يظهر ديكنز سرورا فوق العادة فى حربه ضد موقف رجال السياسة بطريقة لا يستطيع الفقير أن يتحملها إذ أنهم كانوا قد وهبوا المرح على حساب الغير فوصف ديكنز ذلك المرح بطريقة وحشية تتجسم فى شخصية « كيوت . هاجم المؤلف كل آرائهم التى نادوا بها وهى أنه على الفقير أن يعيش عيشة رخيصة وحقيرة . ولم يكن لديهم شىء آخر غير نصح الفقراء بهذه النصائح العرجاء . وكان القرن التاسع عشر يعج بمئات من هؤلاء الأدعياء الذين دأبوا على نصح الفقير تحت ستار المحبة والرغبة وعمل الخير . وقد نادى البعض منهم بضرورة تحديد الفقراء لنسلهم لما ينتج عن كثرة النسل من جرائم وعدم استطاعتهم تربية أولادهم تربية حسنة .

كل هذه المساوىء قام ديكنز بمحاربتها فى هذه القصة كما أنه يروى محادثة بين تروتى فيك والأجراس وفيها تقوم الأجراس بنهر تروتى لاعتقاده بانها كانت تعبر عن أسفها بانقضاء العصور الوسطى .

كانت فلسفة القصة فلسفة مؤلمة غامضة تملأ الجو سموما وتكدر صفو

الافراد لأنها كانت من إنتاج القرن التاسع عشر .

يحارب ديكنز فى هذه القصة صنوف الفقر . فهو يتألم لآلام الفقراء لذا أخذ على عاتقه أن يخفف من تلك الآلام وأن يصلح تلك الأحوال الاجتماعية التى كانت السبب فى تعاستهم . لم يشفق المؤلف على الشعب أو دافع عنه أو حارب من أجله لأنه كان من غير طينتهم بل لأنه كان من الشعب! كان يعبر عن الغضب المستتر الذى كان يسود النفوس، نفوس الفقراء فى ذلك الوقت . فيعبر عما كان يخالجهم ويشعر به الجهلاء نحو المتعلمين . كان القرن التاسع عشر محافظا لا يحب التجديد ، ضد الاطباء والمصلحين والذين يبشرون بالمحبة . ولم يكن أفراده ليرفضوا مساعدة أديرة الرهبان القديمة فحسب بل كانوا يفضلون أن يموتوا بدلا من الذهاب للاصلاحية ، . فى قصة انشودة العيد حين يقوم سكروج بالاشارة الى الافراد الزائدين من السكان فان الشبح يقول له « لا تتحدث عن هذه الزيادة مادمت لا تعلم ما هى الزيارة وأين تكون » كان هذا الحديث الذى تحدث به المؤلف عن طريق شخصياته حديثا معقولا وحين كان يقوم بعض رجال الاقتصاد الذين يزعمون بحب الخير بالبحث عن الزيادة فى السكان فانهم لا يلبثوا أن يجيبوا « إذا وجدت زيادة فى السكان فمعنى هذا أن السكان الزائدين زائدون عن الحاجة ! ! » .

حينما كان تشارلس ديكنز فى جنوة « بلد الأجراس » كان يعمل فى مكتبه فوق الجبل . وكان يصل اليه رنين الأجراس فيتخيلها وكأنها تقرع فى وقت واحد إلى أن جاء منتصف ليلة من ليالى الخريف دقت فيه الأجراس بشدة وهو فى غرفته يحاول النوم ، وكان رنينها الحاء له بفكرة جديدة هبطت عليه فجأة . كان موضوعها الدفاع عن الفقراء فكتب إلى فورستر يقول « لقد سمعنا الأجراس فى منتصف الليل ياسيد شالوا ! » وقبل أن تصل هذه الرسالة

إلى مكتب البريد كان ديكنز يكتب بجد واهتمام مستخدما الفكرة التى أوحت له بها الأجراس . دع هذه الأجراس تقرع ليلا أو نهاراً إنها بدلا من كونها أجراساً ايطالية أصبحت أجراساً انجليزية كالتى كان يشاهدها ديكنز فى كنيسة سانت دنستان فى شارع فليت .

كان المؤلف يجلس إلى مكتبه كل صباح بعد أن يأخذ حماماً بارداً فيعمل إلى وقت الغروب . وقد كان لايستطيع أحد التحدث اليه لأنه كان كالمجنون لايستقر على حال . ولكنه كتب فى اليوم الثالث من نوفمبر عام ١٨٤٤ حوالى الساعة الثانية مساء يقول : « الحمد لله لقد أتممت كتابة قصة الأجراس » . وبعد ذلك أحضر الخرائط على عجل وأخذ يستطلع المسافة بين إيطاليا ولندن . وكان الاتفاق أن يقيم فورستر حفلة فى غرفة « لنكولن إن فيلدز » وكان المدعوون ممن إختارهم تشارلس وعلى رأسهم كارليل أحد الكتاب والمؤرخين المعاصرين ...

وفى الساعة التى حددها المؤلف إجتمع عدد من المستمعين وكان كارليل من بينهم وحينئذ بدأ تشارلس فى قراءة القصة . وكانت قراءته لا تشبه أى قراءة أخرى له . فقد انتحى ناحية جديدة فجعل اشخاص القصة حقيقيين . واستطاع المستمعون حينذاك أن يتخيلوا معه أبطال القصة ويبدأوا وكانهم ينصتون إلى أجراس جنوة الضخمة وهى تقرع بشدة ... وقد كان «ماكلين» صديقا لديكنز يحمل ورقه بيضاء معه فأخذ يرسم فيها منظر القارىء والمستمعين من حوله من غيرأن يعرف ديكنز ورسم حول وجهه خطوطا ضئيلة كأنها شعاع مصباح يفج منه النور . إن وجه ديكنز كان ثابتا فى اضاءته .

شخصية « تروتى فيك » أى حامل التذاكر شخصية غريبة : نراه فى القصة يأخذ خطاباً ليسلمه إلى رجل الأعمال . ذلك الرجل الذى يحب النظام

ويقوم بمراجعة الحسابات ويتأكد من تسديد كل الديون الفردية وبدء العام الجديد معناه فتح حساب جديد .. كل ذلك يجعل « تروتى » يفقد شجاعته لأنه لا يستطيع أن يعمل بهذه التضحية التى يسدى بها له رجل الأعمال وينتهى به التفكير بان طبقته لا علاقة لها بالعام الجديد وأن هذه الطبقة تعتبر دخيلة بالنسبة للطبقات الأخرى . ومع أن تروتى يستعيد شجاعته لمدة ساعتين حين يذهب لحضور حفلة عماد طفل أحد الجيران إلا أنه عند رجوعه إلى المنزل يجد أن فكرة المستر « فايلر » قد علقت بذهنه ويقول لنفسه « إن لدينا عدداً من الأطفال أكثر من متوسط العدد اللازم وأن الأطفال لا حق لهم أن يولدوا ». وحين يجلس فى منزله يقرأ الجريدة وحوادث الاجرام التى يرتكبها الفقراء فان ذلك يؤكد له فكرة أن الفقراء اشرار وأنه لا يوجد أى أمل فى انقاذهم وفى هذه الحالة يخيل اليه أن الأجراس تناديه فيقول لنفسه «فليكن الله بعونى! دعنى أذهب للأجراس. لأننى أشعر بالموت يدنو منى وقد تحطم قلبى وأصبح كسيرا، دعنى أقضى نحبى بين الأجراس التى كانت دائما عزائى الوحيد» فيذهب تروتى إلى الأجراس آخر الأمر وهى فى أعلى البرج وهناك يذهب فى شبه غيبوبة ...

يبدأ الجزء الثانى برنين الأجراس وتظهر الأشباح العديدة فى حركة مستمرة، بعضها يحمل رسائل والبعض الآخر يحمل زهورا وطيورا. ويظهر الآخرون والبشاشه على وجوههم، وآخرون يظهرون بوجوه قبيحة أمام تروتى وكانت الأجراس تدق فى الليل وكأنها تعبر عما يختلج فى نفوس البشر فتقول :- « من هو ذلك الانسان الذى يشك فى حالة الفقير ! ويبعث بصرخة لا معنى لها ضد اخوانه ؟!! » فيجيب عليها تروتى قائلا انه هو ذلك المذنب فتحمله الأشباح فى الهواء فتريه مناظر عديدة تبرهن له أن الخير لا

يزال عالقا بالفقراء والبؤساء حتى فى أسوأ أحوالهم، وفى ارتكاب جرائمهم وأن الجميع يملكون نصيبهم من الخير على السواء. ثم تريه الأشباح بعد ذلك تاريخ حياة ابنته « مج » التى تفشل فى زواجها. ويموت اصدقاؤها، وتترك بطفل صغير فى حالة فقر وبؤس، وينتهى حالها بالطواف فى شوارع المدينة ليلا، ويراها أبوها وهى تفكر فى اغراق نفسها وطفلها، ولكن قبل أن تلقى بنفسها فى الماء ويرى « توبى » كيف تغطى طفلها بجزء من ثيابها البالية بطريقة تظهر جمال الطفل فى مرقده الأخير وكيف أنها تحنو عليه وتدلك له قدميه، وتهبه أعز حب وهبه الله للبشر. وحين تجرى الى الماء يصرخ توبى قائلا انقذها أيتها الأجراس وأرجعيها الى ! دعيها تكف عن عملها هذا ولكن الأجراس تجيبه على طريقته فتقول : ولماذا ننقذها ؟ انها شريرة الفعال . دع الأشرار يموتون ولكن توبى يخر على قدميه ويطلب الرحمة من الأجراس التى تنقذها فى النهاية ! . يعطى توبى الفرصة لأن يرى كيف أن المستر فايلز الرجل المحب للنظام يترك حساباته غير مسددة ومرتبكة مع أنه كان يدعى حب النظام. ويحدث كل ذلك فى نهاية العام ومن هذا يصل تروتى الى النتيجة أن نصيبه من السنة الجديدة لا يقل عن نصيب غيره وأن الفقراء بالرغم من الشر الذى يرتكبونه فان قلوبهم عامرة بالخير الذى ينتصر على كل شىء وأنه يجب على الانسان أن يحتفظ بالثقة فى غيره. ولكن عند هياج بحر الزمن يجرف فى مده أمثال المستر فايلز والمستر كيوت... يسمع توبى الأجراس يدوى رنينها فوق المياه وحين يستمع اليها وينظر حوله يطلب يد المساعدة إذ به يستيقظ، فيجد الجريدة التى كان يطالعها ساقطة عند قدميه و « مج » ابنته جالسة أمامه تحيك شرائط رداء العرس . كل ذلك يحدث فى العام الجديد وحينئذ يسمع من نافذته المفتوحة الأجراس تعلن إنتهاء العام وحلول

العام الجديد وبانتهاء صوت الاجراس يقبل ريتشارد مخطيبته ويأتى الجيران لكى يعبروا لمج عن تحياتهم الطيبة وحينئذ وسط تلك الأفراح يقوم توبى برقصة ذات إيقاع غريب وهى مشيته التى إعتاد عليها .

« عصفور البيت »

كان ديكنز أثناء كتابة أعداد « دومبى وابنه » مر بفترة من الزمن تتخللها المآسى والنكبات ولكنه مع ذلك كتب فيها قصة مرحة هى « عصفور البيت » وهى كتاب العيد الثالث لعام ١٨٤٥ وموضوع هذه القصة عبارة عن حلم فيه ينسى العالم الحقيقى فى حين أنه فى القصتين السابقتين يستيقظ الانسان منهما لكى يواجه عالم النشاط والعمل حين تظهر تلك الأشباح التى نراها فى الفصل الأول من قصة « انشودة العيد » ويحاول الوصول الى الأشخاص الذين يريدون مساعدتهم ، ولكنها تقف عند حدها بسبب الاغلال التى صنعتها لنفسها أثناء وجودها بين الأحياء . فان أصعب شىء يواجهه القارىء هو عدم وضعه الكتاب جانبا وذهابه لعمل شىء آخر قبل أن تتعلق السلاسل به . وأما القصة الثانية أى الأجراس فهى تختلف عن القصة الأولى بأنها تجعل القارىء يشعر بالبؤس إلى أن ينجح فى عمل شى يحدث لشخص آخر فى حاجة المساعدة وأما فى قصة العيد لعام ١٨٥٤ أى « عصفور البيت » فان كل شىء يحدث حول المدفأة ، وما على القارىء إلا الاستمرار فى القراءة حتى لا ينسى العالم الخارجى ويشارك شخصيات الكتاب أفراحهم . وقد مثلت هذه القصة فى يوم ١١ يناير من عامها الأول على مسرح فى لندن وهى لا تزال تقرأ فى لغات عديدة فى أعياد الميلاد . . .

هذه القصة تمثل كل صفات الكاتب الممتازة أو بالحرى الصفات التى

امتازت بها قصص العيد . فيها يشفق ديكنز على الطبقات الفقيرة كما أنها تتغنى بروح المنزل وجمال الحياة العائلية وإجتماع أفراد المنزل حول المدفأة التى يشع من حولها الضوء الذى يدعو الجمع الى الالتفـــاف حوله وعنوان القصة يعبر عن الموضوع بنفس القدر الذى تعبر به الحوادث نفسها يهتم ديكنز باظهار حالة شخصيات القصة المرحة ولكنه لا يهتم بالقصة ذاتها إن قصة هذا الحمال وإمراته لا نستطيع فيها تركيز أفكارنا ولو أننا نشعر بشيء من الحرارة تسرى فى أبداننا حين نقرأها فنسر وتنشرح صدورنا كما أننا نشعر أن كل شيء سيتم بالنحو الذى نريده، فلا يساورنا نفس الشك الذى يساور الزوج « تاكلتون » مثلا وفى النهاية فان أصوات الفرح تصل إلى الآذان أضعف مما نسمع عائلة « كراتشت » أو أجراس « تروتى فيك » . .

« معركة الحياة »

فى عام ١٨٤٦ كتب ديكنز إلى فورستر يقول له « أرسل لك فى إثنتى عشرة رسالة الجزئين الأولين من كتاب العيد . . وأود معرفة رأيك فيهما هل أعطى القصة عنوان معركة الحياة أو قصة حب ؟ . » لقد وجد المؤلف فى كتابتها صعوبة فى التعبير عن الموضوع فى نطاق محدود. وقد كتب لورد جفرى حين نشرها يقول « اعجب بالمعركة إعجابا شديدا إنها أحسن من أى كتابة أخرى لأى مؤلف على قيد الحياة وبها بعض أجزاء تضاهى فى تفوقها كتابات المؤلف نفسه ؟ ! ! ! . .

فى هذه القصة كما فى قصة « الأجراس » نجد أن الأجزاء المهمة كانت محكمة النسج لدرجة تجعل الفكرة غير مناسبة لموضوع العيد. يدور الموضوع حول اختين تقوم الصغرى بالتضحية بعواطفها حتى تجلب السعادة لأختها

الكبرى « جريس » ولكن جريس كانت قد أدت نفس التضحية نحو اختها الصغرى . إن معركة الحياة الأولى والأصعب كانت قد كسبت قبل بداءة الحوادث الأولية فى القصة. وحين نراها لأول مرة نجد أنها منشغلة فى محاولتها لتزويج اختها من « الفريد هيتفيلد » الرجل الذى أحبته والذى كانت تخفى عنه هذا الحب مراعاة لشعور أختها. إن « ماريون » نفسها كانت قد أحبت الفريد وخطبت له ونرى أن الأختين فى بداية القصة تخفيان حبهما وتحاول كل أن تضحى بحبها من أجل الأخرى وفى الوقت نفسه تخلص كل واحدة منهما فى حبها له . . .

فى الجزء الثانى نرى أن ماريون تهرب من منزل والديها وهى لا تزال تخلص فى حبها لألفريد ولكنها تقابل رجلا آخر اسمه « ميشيل واردن » فيتقدم لطلب يدها فتقبله زوجاً لها . فى ذلك الوقت تظن جريس أن ماريون قد هربت مع ميشيل لكى يتزوج الاثنان فتتزوج جريس من الفريد وبعد مرور ســـتة أعوام يلتقى الجميع وينجلى الحق . إن محاولات الجميع يتخللها أحيانا الحزن ولكنها فى النهاية تكلل بأكاليل الفرح والسرور . إن قلوبهم لم يقوضها الحزن الذى فرضته عليهم واجباتهم نحو الاخرين كما أنهم لا يفقدون مقدرتهم على مجابهة اعباء الحياة. من مزايا ديكنز فى هذه القصة أنه يكسب الأشياء الحقيرة رونقا وجمالا كما يخلع عليها ثوبا قشيبا من الروعة والبهاء . ونحن فى هـذه القصة نستطيع أن ننتقل بفكرنا من حقائق الحياة العادية إلى مناطق الفكر الخيالى وفى هذه القصة تقوم كليمنس بدور ليس بحديث هو تواضعها فى الحياة ويقوم المؤلف برفعها الى مكانه مرتفعة فى عالمها ...

وقد كتب ديكنز فى خطاب للسير ادوارد ليتون يقول « لقد سرنى ما ذكرته عن قصتى « معركة الحياة » إننى كنت بائسا لاضطرارى استخدام

فكرة القصة فى عدد معين من الصفحات أى لقصة قصيرة كهذه . إننى لم أر قوتها إلا بعد أن مر الوقت ولم يكن هناك مجال للتفكير فى موضوع آخر وقد كنت أشعر دائما إننى كنت استطيع كتابة شيء أعظم باستخدام الموضوع لقصة أكبر .

« الرجل تطارده الاشباح »

فى عام ١٨٤٦ حينما كان المؤلف فى لوزان بسويسرا جاءته فكرة جديدة لعيد الميلاد الجديد . وقد اضطر وقف العمل بها بعد بداءتها لانشغاله فى كتابة « دومبي وابنه » ولكنه تمكن من نشرها فى عام ١٨٤٨ تحت عنوان « إتفاق الشبح » او « الرجل تطارده الاشباح » وقد بيعت نسخ كثيرة من هذه القصة كما انها مثلت على مسرح « الادلفى » وبطل هذه القصة هو رجل يشتغل بالكيمياء كما أنه مدرس فى أحد معاهد التأسيس القديمة وعالم انكب على دراسة الفلسفة وكان يكثر التفكير فى الماضى ويعتقد أن دراسة الحاضر أكثر نبلا من الانشغال بالماضى . إن الذكرى التي كانت تطارده هى فكرة عمل خاطىء كان له أكبر الأثر فى حياته . كان ذلك الفليسوف يحادث الجن كل ليلة . فلا يلبث الرجل العالم أن ينجح فى ابرام معاهدة مع الجن وهى مقدرته على أن يفقد ذكرى الحزن والأخطاء التى حدثت له فى الماضى . ومن ثم يصبح ذا قوة يؤثر بها على الأفراد الذين كان يقابلهم . وكأن له السلطة على استخدام تلك الموهبة فى الأماكن الفقيرة والثرية على السواء . إن عقلية هذا الفيلسوف تصبح مساوية للكائن الوحيد الذى لا يستطيع أن يؤثر عليه وهو صبى بدون مأوى الا الطرقات العامه والذى أصبح بسبب شهواته الحيوانية عبارة عن مجرم صغير إن كل الأعمال

شريرة تعتبر لديه محاسن لأنه لم يتعود عمل شيء أفضل من ذلك، كما أن الحزن يحتل أى مكانة فى ذاكرته، ولذلك لا يستطيع الفيلسوف العالم أن يسيطر عليه برغم ما عنده من قوة .

نجح ديكنز نجاحاً عظيماً حين استطاع بقوة قلمه أن يساوى بين ذلك الصبي الجاهل الذى عرف كل السرور وذلك الرجل العالم الفيلسوف. ولكن في تلك القصة كما فى غيرها « عصفور البيت » نجد أشياء غير معقوله، ولكننا على كل حال نعجب بهذه القصص لما فيها من مزايا كما أننا نعجب بتلك الشخصيات البسيطة والتى لها اهميتها فى القصة.

موضوع القصة اجماليا تاثير الموهبة التى بهبها الجن للعالم و تاثيرها بدورها فى الآخرين . إن الشيء الذى كان ينقص هذا العالم الكبير كان يوجد فى أبسط العواطف المحبة. فتقدم زوجة حارس المعهد حيث يقوم العالم الكيميائى بالتدريس احداث التغيير وذلك لامتلاكها فضائل إنكار الذات والتى تكسب أبسط كائن فى الوجود جمالا، وتجلب له مزيدا من الحب. إن الأحزان التى صادفتها فى حياتها جعلتها ترغب فى التخفيف عن آلام الغير وأحزانهم ، ومنها يصل العالم إلى ضرورة التعاون وأن الحياة أجمل مما يعتقد الانسان كما أن للأحزان فوائد عديدة . . .

كانت الفكرة فى هذه القصة والتى يشرحها ديكنز فى خطاب لفورستر هى أن الخير والشر لا يمكن أن يتجزآ فى ذاكرة الإنسان. فان الإنسان لا يستطيع أن يحصل على السرور الذى يأتى من تذكر الخير بمفرده . لكى يحصل على أحسن مزايا الخير يجب أن يشعر الإنسان بتأثير أسوأ نواحى الشر.

اضطر المؤلف عند كتابه هذه القصة أن يذهب الى « بتريجتون » وهناك

نجح فى خلق شخصية أخرى تشبه سكروج وتلك هى شخصية المستر «ريبلو» كما أنه خلق عائلة «سويدجرز» عوضاً عن عائلة «كراتشت» فى قصة «أنشودة العيد» وإن هذه القصة لتبرهن على عظم عقلية ديكنز فى ذلك الوقت. لقد أراد أن ينسى ماضيه الذى كان يضم حوادث مؤلمة لم يفه بها لأحد. لقد كان دائما يشعر بأن هناك أشياء فى ماضيه تعيبه ككاتب ومؤلف مشهور..

هذه القصص الخمس جمعت فى مجلد واحد تحت عنوان «كتب عيد الميلاد» ولكن ديكنز قد كتب أيضا نبذات وقصص أخرى موضوعها عيد الميلاد وهى اليوم توجد فى مجلد واحد يعرف بعنوان «أقاصيص عيد الميلاد» فمثلا ذات عام كتب عددا خاصا للعيد فى مجلة «هو بسهولد وردز» وفيها ساهم المؤلف فى «شجرة عيد الميلاد» فنراها بأنوارها الساطعة وهداياها الجميلة وشمعاتها المضيئة، وصورها المتحركة، ومناظر قصة عيد الميلاد، فنرى الملائكة وهم يحدثون الرعاة ويبشرونهم بميلاد المسيح ثم نراهم فى سفرهم يتبعون النجم إلى بيت لحم حيث يوجد الطفل فى مزود البقر ثم يختم المؤلف رسالة العيد بقوله:-

«هذا هو تذكار قانون المحبة والشفقة والرحمة والرأفة - هذا يذكركم بى!!»

«معنى عيد الميلاد للكبار»

وفى عام ١٨٥١ كتب ديكنز قصة «معنى عيد الميلاد للكبار» يقول فيها:

«فى العيد يجب ألا نقفل الأبواب فى وجه أحد، فلندع الجميع يتمتعون بما نتمتع به نحن فى بيوتنا. يجب أن نذكر الأموات كما نذكر الأحياء الذين

بحبهم، وذلك بأن نوجه افكارنا الى الذين فقدناهم من أحبابنا ، فنقول أيها الوالد الذى حرمنا منه ، أيها الطفل ، أيها الزوج العزيز ، اننا لن نطردكم من وسطنا أو نسياكم . إنكم ستحتلون مكانكم العزيز فى قلوبنا التى تبتهج بالعيد وحول مدافئنا، وفى هذا الموسم حين يوجد الأمل الدائم . وفى يوم عيد الميلاد عيد الرحمة .الرحمة الأبدية فاننا لن نتركم خارج بيوتنا بل قلوبنا معكم »

لقد كان يؤمن بأن العيد خلق لنشر المحبة للجميع وكان يأمل أن تسعد البلاد بأكملها فى ظل حب أعظم وأن يغمر السرور والفرح جميع الطبقات سواء بسواء . . .

obeikandl.com